نحن الذين أحببنا من مصر جمالها الطبيعي وجلالها التاريخي وعظمتها الاثرية وعذوبة بنيها وبناتها ، نحن الذين أحببنا من مصر كل شيء نعم ان مصر الحقيقية ، مصر العميقة كانت تلك الثائرة عالية الجبهة وراء أعلامها المنشورة . مصر هي تلك الشيبة الطامحة الى الارتقاء وتلك الامة التي لها من فطنتها ما يذكرها ان طريق التقدم ليست التخريب والتشويش والتدمير بل الهدوء والعمل والكرامة والتفكير . مصر هي المرأة المصرية التي أرتنا في هذه الايام ان فيها ما كنا نتساءل لها وهو ينتظر ان تنبهه يد الاحوال ليبدو مسطوراً . ما كان ألطف السمات النسائية اياد المظاهرات وراء النقاب الابيض ! وما كان ابهج الاعلام المصرية المثلثة الاهلة الموحدة الصليب تلوّحها الايدي النحيفة ! وما أحبّ الاصوات الشجية الخافتة تنشد أناشيد العزّ وتهتف هتاف الحماسة !

لترقد الباحثة بأمان وسلام ان لاخواتها أهلية وطنية كأهليتها . أحيي هنا ما كان عندها من مصرية صادقة واحيي بعدها كل امرأة مصرية ، ولا أحشى ختم هذا الفصل بهتاف واحد : لتحي مصر ! (مي)

المظاهرة والاعتصاب

تمهيد

للعمران الاوربي حسنات شتى تفوّق بها الاوربيون حتى صار لهم ولابنائهم في اميركا السيادة على المسكونة كلها لا يستثنى من ذلك الا بلاد اليابان التي اخذت اخذهم . وتعداد هذه الحسنات يفوق الحصر اهمها تقدم العلوم الطبيعية والميكانيكية وما بني عليها من التفوّق الصحي والزراعي والصناعي والتجاري . وقد اقتبسنا كثيراً منها في هذا القطر فاطباؤنا بارعوا الاطباء الاوربيين في علومهم ومعالجاتهم الدوائية والجراحية . وصيدلياتنا لا تفرق عن الصيدليات الاوربية بما فيها من الادوية والمستحضرات الدوائية . واهل الزراعة شرعوا يستعملون المحاريث البخارية والاسمدة الكيماوية وانشأوا لحلج القطن وعصر الزيت الخام المحالج والمعاصر . وانشئت الورش الصناعية الكثيرة في البلاد تصنع الآلات المعدنية والامتعة الخشبية على اختلاف اشكالها وانواعها . وقد كانت سككنا الحديدية مثل افضل السكك الاوربية في اتقانها وانتظام سيرها وكفاءتها لنقل

حاصلات البلاد وانتقال سكانها من جهة الى اخرى . وكانت البلاد كلها مرتبطة بالبريد والتلغراف والتلفون حتى كأنها مدينة واحدة فيجلس الواحد منا في دارهِ بالقاهرة ويخاطب عميلهُ في الاسكندرية بالبريد او بالتلغراف او بالتلفون ويستدعيهِ في الصباح فيقضي شغلهُ ويعود في المساء . او يكلف ناظر زراعتهِ في اية جهة كانت من هذا القطر بالبريد او بالتلغراف يومياً . وكل مدير يستطيع ان يخاطب بالتلفون كل مأمور مركز وكل ملاحظ نقطة وكل عمدة بلد كل يوم وكل ساعة . وتستطيع وزارات الحكومة ان تكلمهُ بالتلفون وتكلم مفتشي ازي ومهندسيهِ وكل رجال الادارة . والاعمال كلها جارية على ما يرام . ولم يرَ القطر المصري في كل ما مرَّ عليهِ من القرون انتظاماً مثل هذا الانتظام ولا تسوقهُ فيهِ مملكة من ممالك اوربا . والفضل في ذلك كلهِ لحسنات العمران الاوربي التي اقتبسناها من اوربا وللذين اتونا بها ونشروها بيننا

لكن لا ورد بلا شوك ولا خير بلا شر . فللعمران الاوربي سيئات كما لهُ حسنات . وكما ارتقى بحسناتهِ حتى فاق عمران رومية وقرطاجنة واثينا ومصر وبابل يخشى ان تهبط بهِ سيئاتهُ

***

مهما صلحت حال بلاد وعال سكانها يبقى فيها ناس امورهم غير صالحة إما لضعف فطري فيهم جسداً او عقلاً واما لانهم ولدوا في بيوت الفاقة او في احوال غير ملائمة للنجاح . او لانهم ابتلوا بمرض او بخسارة قهرية . ولو جمعت ثروة مملكة من الممالك ووزعتها على كل سكانها بالسواء بيتاً بيتاً وفرداً فرداً وتركتهم كذلك عشرين سنة ثم عدت اليهم لوجدت فيهم الغني والفقير والقوي والضعيف والمقتر والمبذر كما كانت الحال قبل توزيع الثروة عليهم لان النجاح يستلزم اموراً كثيرة الناس متفاضلون فيها هم وبيانهم وهذا التفاضل يوجب التفاضل في كل ما يبنى عليهِ وينتج عنهُ . ولا سبيل لوضع الناس كلهم في مستوى واحد وابقائهم فيهِ ما داموا متفاضلين طبعاً ووضعاً

وما يصدق على سكان المملكة الواحدة بعضهم تجاه البعض الآخر يصدق على الممالك كلها بعضها تجاه بعض لاختلاف اقاليمها ومواقعها وما فيها من المرافق والوسائل الطبيعية

ثم ان الميل الى الارتقاء فطرة في نفس الانسان وبها ارتقى نوعهُ . والسعي الى الارتقاء فضيلة ما دامت وسائله محلَّلة فلا يلام ابن الاسكاف اذا وضع نصب عينيهِ منصب الوزارة وسعى اليهِ سعياً مشكوراً بالدرس والتأهُّل لما يتبوأ هذا المنصب. ولا يلام ابن الفلاح الصغير اذا درس اساليب الكسب الحلال وواظب على الاجتهاد والاقتصاد حتى صار صاحب اطيان واسعة

وما يصدق على آحاد الناس بعضهم ازاء بعض من هذا القبيل يصدق على الممالك بعضها ازاء بعض . فلا تلام مملكة قليلة المعادن يتعذَّر تفوُّقها الصناعي اذا زادت اهتماماً بزراعتها حتى اغنتها عن الصناعة او بانشاء المرافىء الصناعية حتى اغنتها عن المرافىء الطبيعية او اذا هاجر بعض ابنائها في طلب الرزق الى بلدان عامرة وعاملوا اهلها وربحوا منها او الى بلدان غامرة واصلحوها واكتسبوا من خيراتها . كل ذلك يكاد يكون بديهياً وقد جرى الناس عليهِ في كل الازمنة

لكن في طباع الناس والحيوانات صفةً قلما تتفق مع المصلحة وهي صفة العدوى او الاشتراك ولو في الضرر . يقع سرب من الحمام في مكان كثير الحب ويجعل يلتقط حبهُ نائم البال وترى حمامة منهُ او تسمع ما يزعجها فتطير فيتبعها السرب كلهُ لا يدأل عن سبب طيرانها ولا هل هو موجب لطيران السرب كلهِ . ويرد قطيع من الغنم غديراً وهو في اشد الظمإ ثم يخيَّل الى خروف منهُ ما يُقلقهُ فيجفل ويتبعهُ القطيع كلهُ وقد يصل الى جرف شاهق فيثب الى هوة عميقة تحتهُ ويثب القطيع كلهُ وراءهُ

فهذه الصفة صفة الاشتراك في الشعور غير خاضعة لاحكام العقل ولا لقوانين الاجتماع . وقد لا تضرُّ بل تنفع كما لو هرب قطيع الغنم من الذئب ولكنها قد لا تنتج الاَّ الضرر كما اذا تدهور القطيع كلهُ من شاهق مشاركة لخروف منهُ . والضرر هنا اغلب من النفع كما في كل الاعمال التي لا تبنى على احكام العقل . ومن هذا القبيل الاشتراك في المظاهرات والاضراب عن الاعمال لغير موجب وهما من اضرّ سيئات العمران الاوربي

المظاهرات

لو لم تكن الامور بنتائجها لما كتبنا كلمة انتقاد على المظاهرات بل لمدحناها كما نمدح كل عمل حسن لانها ممدوحة لذاتها ومن لا يمدح اظهار الشعور بدليل

حسي. وكلمة مظاهرة العربية لا تؤدي كل معنى الكلمة الافرنجية الموضوعة لهذا العمل فان معناها البرهان او الاستدلال. لان المظاهرة برهان حسي على ما يخامر النفس من غبطة وحبور او غيظ وغيور. ولا يحسن بالانسان ان يكتفي حجراً لا يشعر وان شعر فلا بد لهُ من التعبير عن شعوره. فلا لوم على من يشعر ويعبر عن شعوره بعلامة ظاهرة. ولكن هنا يدخل الاشتراك الطبيعي من غير شعور اصلي وفيهِ الضرر. يطير الحمام كلهُ وينقطع عن طعامهِ لان واحدة منهُ طارت وتتدهور الخرفان كلها وتهلك في اثر خروف منها. واكثر المظاهرات ان لم تكن كلها على هذا النسق يشعر البعض بشيء ويصعب عليهم كتمان شعورهم فيجاهرون بهِ ويجري في اثرهم كثيرون محقين كانوا او غير محقين فيتحول الشعور العقلي الذي لهُ مسوغ حقيقي الى شعور طبيعي لا مسوّغ لهُ سوى مجرد المشاركة. ولا يقف حينئذٍ عند اظهار الشعور بل يتعداهُ الى افعال تتجاوز حد المعقول

ويسوءنا جداً انهُ جرى في هذا القطر مظاهرات ترتبت عليها خسارة كبيرة جداً في الارواح والاموال. وليس هذا محل البحث في اسبابها ولكن مهما كان سبب المظاهرات شريفاً والتنظيم فيها محكماً فقد ينضم الى المتظاهرين اناس يفسدون عليهم عملهم ويقلبون الغاية التي يرمون اليها من النفع الى الضر. ثم اذا تكررت المظاهرات في بلاد قويت فيها الميل الى الهوس فتتوتر الاعصاب ويضعف سلطان العقل على الاهواء. والهوى مجلبة الهوان

الاعتصاب

انشأنا منذ اثنتين وثلاثين سنة مقالتين مسهبتين موضوعهما مشاكل ذوي الاعمال وتعصب العمال نشرناهما في مايو ويونيو سنة ١٨٨٧ وابنا فيهما ان الغاية التي يسعى اليها العمال باعتصابهم انما هي زيادة ما يكتسبونهُ الا ان الوسيلة التي يتوسلون بها لذلك تأول الى انقاص ما يكتسبونهُ ولو زادت اجورهم لانهم اذا اضربوا عن العمل خمسة اسابيع فقط في السنة نقص ما يكتسبونهُ تلك السنة عشرة في المائة وهم قلما يطمعون ان تزاد اجورهم عشرة في المائة. واذا فازوا بانقاص ساعات العمل قلَّ ربح المعمل فتتعذر على صاحبهِ زيادة اجورهم في المستقبل كما لو بقي ربحهُ كثيراً. اما ما حدث من زيادة الاجور بنوع عام فليس سببهُ الاعتصاب بل استخدام الوسائل العلمية والآلات الميكانية التي قلَّت بها نفقات الاعمال وزاد

ربحها فتتمكن اصحابها من زيادة اجور العمال من غير خسارة تقع بهم

وذكرة الاساليب التي يمكن ان يتلافى بها الاعتصاب وهي على نحو ما اقرّت عليه جمعية الدول الآن في باريس كما سنبينهُ في فرصة اخرى . ثم نشا اعتصاب العمال في القطر المصري سنة ١٨٨٩ اي منذ ثلاثين سنة فانشأنا مقالة اخرى في هذا الموضوع نشرت في مقتطف اكتوبر تلك السنة ابنا فيها ان اول اعتصاب وقفنا على ذكرهِ وسببهِ جرى في هذا القطر منذ نحو ستة قرون حينما فشا فيهِ الطاعون الجارف الذي قيل فيهِ

اسكندرية ذا انوبا سبعٌ يعدُّ اليك ضبعهْ
صبراً لقسمتهِ التي تركت من السبعين سبعهْ

ونتج عن الطاعون ان قلَّ العمال كثيراً فاعتصب الباقون منهم واضربوا عن العمل طالبين زيادة اجورهم . ثم اتينا على ذكر بعض الاعتصابات الكبيرة التي حدثت في البلاد الانكليزية وغيرها وما نتج عنها. ففي سنة ١٨١٠ اعتصب ثلاثون الف عامل في البلاد الانكليزية واضربوا عن العمل اربعة اشهر فخسروا بذلك ثلثماية الف جنيه اجوراً ولما عضهم الجوع رجعوا الى اعمالهم واجورهم على حالها. وسنة ١٨٢٠ اعتصبوا ايضاً واضربوا عن العمل فخسروا ٢٥٠ الف جنيه . وسنة ١٨٣٠ اعتصب ثلاثون الف عامل واضربوا عن العمل عشرة اسابيع فخسروا ٢٠٠ الف جنيه . وسنة ١٨٧٢ اعتصب العمال في مناجم الفحم في ويلس فخسروا باعتصابهم ثلاثة ملايين من الجنيهات . وسنة ١٨٧٨ اعتصب ٣٠٠ الف من غزالي القطن واضربوا عن العمل شهرين فخسروا مليونين ونصف مليون من الجنيهات

ومن اعظم الاعتصابات في اميركا ما حدث سنة ١٨٧٧ اذ اعتصب مئة الف من عمال سكك الحديد واربعون الفاً من مستخرجي المعادن فبلغت خسارة العمال في سكة الحديد مليونين من الجنيهات

***

وقد شاهد القطر المصري في شهر ابريل الماضي نوعين من الاعتصاب لغرضين مختلفين الاول اعتصاب كثيرين من رجال الحكومة واضرابهم عن العمل لغرض سياسي . والثاني اعتصاب عمال سكك الحديد والترامواي ومصلحة الكنس والرش للغرض الاول ولغرض آخر وهو ان تزاد اجورهم ويمنحوا بعض الامتيازات .

والغرض الاول وهو الغرض السياسي لا سبيل للمقتطف الى البحث فيه ولا في نتائجه من باب سياسي والغرض الثاني اجتماعي والاعتصاب لاجله جائز في شرائع اكثر الممالك ولكن النفع من الاعتصاب في سبيله قليل وضرره كثير . ونتيجة يسهل نيلها بغير الاعتصاب وذلك من جملة المسائل التي بحث فيها مؤتمر الصلح كما تقدم وستجعلها جمعية الامم من اول اغراضها

ولا نكتب هذه السطور الآن الاَّ لاظهار السبب الذي يجعل المظاهرات والاعتصابات كثيرة الضرر وهو انها تحمل الغوغاء والاشرار على الاشتراك فيها بنوع من العدوى العصبية وهؤلاء يحملهم انطيش وهوى النفس على التخريب والتدمير . ومتى تكررت المظاهرات والاعتصابات بين اقوام لم ترسخ اقدام الجمهور والاكثر منهم في الحضارة والطاعة للقوانين وتغلب العقل على اهواء النفس تقوضت اركان الامن في بلادهم وآل الامر الى الفوضى فعسى ان يكون فيما حدث عظة لمستقبل

المظاهرة والاعتصاب في نظر القانون

قلنا في الكلام على الحرية الشخصية في مقتطف الشهر الماضي انها حددت في اعلان حقوق الانسان الذي اعتمدتهُ فرنسا سنة ١٧٨٩ بانها « القوة لعمل كل ما لا يضرُّ بالغير »

والمظاهرة عمل اختياري فهي جائزة مشروعة مهما كانت غايتها اذا لم تضر بالغير ولكنها اذا اضرَّت صارت ممنوعة. وما يقال في المظاهرة يقال في الاعتصاب او الاضراب عن العمل

وقد ابنا سابقاً ان المظاهرة فلما تنفع الاَّ ويشترك فيها اناس كثيرون وقد يعمل بعضهم اعمالاً ضارة كما حدث فعلاً ولو قام بها اولاً افضل الفضلاء وابعدهم عن الاضرار بالغير واشدهم احتفاظاً بالقوانين . فاذا ترجَّح حدوث ذلك وجب منع المظاهرات مهما كانت غايتها حميدة

والاضراب عن العمل جائز ايضاً ومشروع اذا لم يضر بالغير ولكن اذا اضرَّ صار ممنوعاً . فاضراب التلامذة عن تلقي الدروس لا يضر بالغير فهو غير ممنوع ولكن اذا منع التلامذة غيرهم عن القيام باعمالهم فهذا المنع محرَّم لانهُ ضار بالغير ويحق لمن مُنع عن القيام بعمله ان يشكو امره الى الحاكم ويطالب بالعدل والضرر

ويجوز لكل عامل ان يضرب عن عمله اذا لم يضر بغيره. فاذا كان في بيتك آلة لتوليد الكهربائية وانارة بيتك بها فانت حرٌّ ان تديرها وتنير بيتك او توقفها وتبيت في الظلام ولكن اذا كنتَ مرتبطاً بانارة بيت جارك ايضاً من هذه الآلة فلا يجوز لك ان توقفها وتبقي جارك في الظلام وانت فعلت حقّ لهُ ان يطالبك بالعطل والضرر ولا تعفى من انارة بيته الاّ اذا توقفت الآلة بقوة قاهرة لا تستطيع منعها . وشأن الاضراب العام كالاضراب الخاص وقد كان محرماً في الشريعة الانكليزية وبقي كذلك سنة ١٨٢٥

وهذه القواعد الاولية تصدق على مستخدمي الحكومة لدى اضرابهم عن العمل كما تصدق على كل احد غيرهم . يقال ان اضرابهم في مصر الآن كان لغاية سياسية وهي طلب الاستقلال التام او الاعتراض على بسط الحماية او نحو ذلك من الاغراض . وهذه الغايات كلها حميدة ولكن لا يحق للانسان ان يعمل عملاً يضرُّ بغيره مهما كانت غايتهُ حميدة . ولا يحق لهُ ان ينقض اتفاقاً هو مقيد به من غير ان تقع عليهِ تبعة هذا النقض

والمعروف ان بين الحكومة ومستخدميها ارتباطاً معيناً رابطاً على الفريقين فلا يجوز للحكومة ان ترفت مستخدماً الاّ اذا اثبت وظيفتهُ فترفتهُ بالاستغناء او اذا حاكمتهُ في مجلس تأديب لذنب ارتكبهُ وحكم عليهِ المجلس بالرفت . وان رفتتهُ لغير ذلك حقّ لهُ ان يداعيها في محاكم القضاء ويطالبها بالعطل والضرر . والمحاكم تحكم لهُ على الحكومة كما هو معلوم . وهو اذا استعفى على غير رغبتها خسر حقهُ في المعاش واذا غاب عن عمله ١٥ يوماً او اكثر لغير عذر مقبول عدَّ مستعفياً . هذه قيود بين الحكومة ومستخدميها لا يحق لها ان تشكو منهم اذا عاملوها بموجبها ولا يحق لهم ان يشكوا منها اذا عاملتهم هي بموجبها

هذا ما يقال في مشروعية المظاهرة والاضراب عن العمل اي ان كلاً منهما جائز على شرطين ان لا يضر بالغير ولو كان الضرر غير مقصود بالذات

الاّ انهُ اذا كانت الغاية من المظاهرة او الاضراب حميدة او اذا لم يكن فيهما قصد سيء سهل التجاوز عن الخطإ والمعاملة بالحلم وهذا الذي نرجيهِ في الاحوال الحاضرة

ومن ذا الذي ترضى سجاياهُ كلها كفى المرء نبلاً ان تعدَّ معايبهُ